المحاضرة الثالثة
التأثيرات الشرقية في ظهور الرواية
يعدّ الشعر الغنائي والملاحم والشعر المسرحي أصولا للرواية حيث تأثّرت بالقصّ الموجود في هذه الأعمال، فـ "كانت القصّة قريبة من أصلها الملحمي"[1] حيث نجد كلاّ من الشاعر والقاص يتخيّل ويصف ما يتخيّل ويركّز على الأحداث العجيبة والأخطار الخياليّة. ثمّ ظهرت القصّة ذات الطابع الشعبي هي الفابليو والتي تعني الخرافات والأساطير متأثّرة بالثقافة العربيّة وبخاصة كتابي (كليلة ودمنة) و (ألف ليلة وليلة)، كما تأثرت الرواية الغربية بقصص الفروسيّة والحبّ.
أمّا الفروسيّة والحبّ ففيهما "بدأ تأثير عربي ذو قيمة أدبيّة كبيرة ظلّ طوال العصور الوسطى وشطرا من عصر النهضة"[2]. ذلك أنّه على الرغم من انتشار الحب العفيف في قصص اليونان إلا أنّ المرأة عندهم لم تكن ذات مكانة تخوّل لها سلطانا على الحب كما هو الشأن في عصر الفروسيّة، وعلى الرغم من إشادة أفلاطون بالحب وأثره في قيادة النفوس عن طريق العاطفة غير أنّ رأيه انحصر في دائرة الفلسفة من دون أن يخرج عنها، كما أنّ الحب عنده له معنى أوسع لا يقتصر على حبّ المرأة وحدها ولذلك لم تتأثّر القصص برأيه في الحب. حتّى ألّف أفيديوس Ovidius (43 ق م – 18م) كتابين سمّى الأوّل (فن الحبّ) لم يراع فيه أي مكانة للمرأة وقد اكتسب الكتاب هجاء اجتماعيّا، ثم أراد أن يكفّر عن ذلك فكتب كتابا آخر سمّاه (علاج الحبّ). و الحبّ في الكتابين عبارة عن مجون ودعابة ولا جدّ فيه. غير أنّه في القرن الثاني عشر ألّف أندري لو شابلان André Le Chaplain كتابا سمّاه (فنّ الحبّ العفّ) يذكر فيه إدراكا جديدا للحب لم يكن معروفا في الأدب الأوروبي. والسؤال من أين أتى ذلك الإدراك الجديد للحب؟
ومن المقطوع به أنّه نشأ على إثر الاتصال الغربي بالشرق إمّا في الحروب الصليبيّة وإمّا عن طريق العرب في الأندلس. إنّ هذه الفرادة في إدراك الحب في الآداب الأوروبيّة إنّما ظهر بتأثير حب الفروسيّة العربي بعد أن اشرب أهله روح الإسلام.
وأمّا كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة فقد كان لهما الأثر الكبير في الرواية الغربيّة.

أولا أثر ألف ليلة وليلة:

انتقل كتاب ألف ليلة وليلة إلى الثقافة الغربية مع نشاط حركة الترجمة في القرن الثامن عشر، والتي نقلت العديد من الأعمال المكتوبة من العالم العربي، وتحديداً مصر والعراق.
ترجمه في القرن الثامن عشر الفرنسي أنطوان جالون Antoine Gallandما بين عامي 1704 – 1717. ثم ترجمه ادوار وليام لين Edward William Lane بين عامي 1838 – 1840. ثمّ جاءت ترجمة جون باين ثمّ ترجمة ريتشارد بيرتون الإنكليزية التي ظهرت في العام 1885.....
زادت شهرة ألف ليلة وليلة بقوة، وبخاصّة في فرنسا وبريطانيا ، ومنهما إلى أغلب ثقافات العالم، حتّى قال عنها الأديب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، المعروف بكونه "عبقري الواقعية السحرية"، في مذكراته الموسومة "عشت لأروي" يقول: "تعلّمت من ألف ليلة وليلة ما لن أنساه أبداً، بأنه يجب أن نقرأ فقط الكتب التي تجبرنا على أن نعيد قراءتها. إن ألف ليلة

[1] غنيمي هلال الأدب المقارن ص 165
[2] نفسه ص 165

وليلة هو ما صنع مني أديباً، بعد أن سحرتني الحكايات داخله، وأكثر ما شغفت به هو دور الراوي". والمقصود بدور الراوي العمليّة السرديّة.

كثير من المبدعين العالميين الغربيين تأثرت كتابتهم بهذا الكتاب الشائق، سواء من الروائيين أم الشعراء مثل ماركيز وشكسبير وجيفري وبوكاشيو وغوته وغيرهم. فكثير من أعمال هؤلاء وغيرهم استلهموها من هذا العمل الفنّي العملاق. تقول عنه الناقدة الألمانية أردموتة هللر "أسهمت في خلق الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق، إذ حملته معها ونقلته إلى الغرب. وتسنّى للغرب من خلال حكايات شهرزاد اكتشاف الشرق. ولا يوجد مؤلَف شرقي أثّر تأثيراً في الأدب الأوروبي مثل تلك الحكايات الرائعة والجذابة. فبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من الأدب العالمي تماماً مثل إلياذة هوميروس، وآينيز، وفرجيل، وديكاميرون، وبوكاتشيو. ويقول الباحث والناقد الإنجليزي كولريدج: "إنّ قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام، إذ إنها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له، تلك الصورة التي لا يدركها العقل".

وكان للكتاب تأثير كبير في أوروبا منذ أكثر من مائتي سنة وغير مجرى حياتهم، فكان سبباً في اندحار الكلاسيكية في بلد عريق بالكلاسيكيّة كفرنسا وظهور الرومانسية التي قرنت اسم (بغداد) بروما واثنيا في الصالات الأدبية وأصبح أحدوثة الناس بين موسكو وباريس واعترف كبار الادباء الاوربيين بفضل الكتاب عليهم، من بينهم، فولتير وستندال، وبرناردشو وأكّدوا مدى اعجابهم بالكتاب وتأثرهم به، وأخذهم عنه. وكان سبباً في عناية الاوربيين بآدابهم الشعبية (الفولكلور) بل نستطيع أن نقول أبعد من ذلك؛ إنّه كان عاملاً من عوامل الثورة الفرنسية، هذا على حدّ زعمهم هم، وهذه شهادة أخرى على مدى تأثرهم به.

ثانيا: كليلة ودمنة

كتب الغربيّون أدبا على لسان الحيوانات وقد برز في هذا الميدان الأديب الفرنسي لا فونتان Jean de La Fontaine (1621 – 1695) وقد تأثّر بمن سبقه من الأدباء في العصرين اليوناني والروماني كما تأثّر كذلك بالأدب العربي في كليلة ودمنة على حسب ترجمتها الفارسيّة وذلك أن لا فونتان كان يتردّد على نادي مدام دي لا سابلير Mme de la Sabliére (à1636 – 1693) وكان من أعضائه الطبيب الرحالة برنييه الذي عرفه بالكتاب فأخذ منه الكثير من الخرافات ممّا يدل على مشاركة النتاج الشرقي في الابداع الغربي.

ثالثا: رواية الشطار /المقامات

القصص المعروفة ب (البيكاريسك) picaresque الاسبانية الأصل، حيث إن كلمة (بيكارو) Picaro الأسبانية تعني (متشرد) وأن قصة البيكاريسك النموذجية تتناول الأعمال الطائشة لشخص وغد يكسب عيشه بأساليب بارعة لكنها ليست شريفة على الدوام! وهذا يذكرنا بالمقامات في الأدب العربي ولا شكّ أنّ هذا الفن أخذه الإسبان من الأدب العربي مما يدل على تأثر الرواية البكاريسكية بفن المقامات وفي هذا السياق تدين الرواية الواقعية بالكثير الى مثل هذه الأعمال ذات الطابع الأدبي التي كتبت حتى تخفف من وطأة الأشكال القصصية الرومانسية وتلك المنسوجة في قالب مثالي